الفصل الحادي عشر

الخاتمة

في هذه الأيام العصيبة التي نعيشـها لا يمكن أن نعد قصة أي شخص على أنها منتهية إلى أن يموت، وحتى بعد موته يمكن للأعمال الصالحة والطالحة التي قام بها أن تستمر لتخيم بروحهـا على مسرح الأحداث التي قام بها في دنياه. ومن دواعي سروري أنني ما زلت عـلى قيد الحياة أتحـدث وألهو في لبنان مع رالف إيزارد في وقت جاءت فيه مقـالة صغيرة نشرتها صحيفة (الـديلي ميل) أنني لم أعد أكثر من مجرد ذكـرى في ذاكرة أرملتي. وبالفعل كانت زوجتي قـد تلقت رسالة تعزية من صديقـة قديمة لي متـقاعدة تعـيش في إحدى مناطق جبـال الألب. وهنا أتجرأ في اقتبـاس الأمور التالية من تلك الرسـالة لتكون الهفوة الوحيـدة التي أشاهدها وأنا على قيد الحياة:

«كتبت تقول لزوجتي: إن اسمي لا يعني شيـئاً بالنسبة لك لكن اسمك بالنسبة لي بمثابة الهدية التي وهبـتها الحياة لي وهي لا تنسى. قبل الحـرب الأخيرة وأثناء وجـودي في لبنان حصل لـي بالغ الشرف والسـعـادة في الذهاب إلى منزلك في إحدى الأمـسيات. سـبق لزوجك الذي أعجبت به كـثيراً أن أخـذني إلى منزلكم وطلب مني أن أتناول العـشاء معـه بعد أن كنا قـد ذهبنا إلى مدينة كـانتربري. لا يمكن لي أن أصدق بأن هذا الرجل العظيم قد قضى نحـبه. أين حدث ذلك ومتى حدث ذلك؟.. أنا على يقين بـأنه أمر محزن لك ولأسـرتك، كما أن مـوته أمر

مؤسف جدا للإمبراطورية البريطانيـة. بإمكانك أن تدركي بأن كوني من المعجبات المخلصات لـلمرحوم زوجك فـأنا لا أزال مؤيدة ونصـيرة قـوية للعرب، كـما أن أصدقائي من أنصارهم أيضاً. إنني المرأة الوحـيدة التي زارت واحة الكُفره وعبرت كافة الصحراء الليبية، وذلك من واحة الكُفره إلى تشاد. وهنا أشعر بأنه لزاماً علي أن أخبرك عن مدى حزني وتعاطفي مع مأساتك».

كانت كاتبة تلك الرسالة امرأة من الرعايا البـريطانيين تحمل اسما فرنسياً بسبب زواجها من شخص فرنسي. إن الكثير من التـجارب المهمة العالقة في ذاكرتها هي أكثر من مجرد معرفة عابرة بزوجتي ومعرفة عابرة بي حدثت قبل ستة عشر عاماً. كانت قد قامت بنصيبهـا من الأعمال خلال أيام الحرب. والغريب في الموضوع أن رسالتها كانت قـد كتبت في موعد الذكرى السنوية نفسهـا لوفاة ابن سعود العظيم التي كانت بطبيعة الأمر السبب المباشر في معرفتنا ببعضنا.

أما الذكـرى السنوية الأخرى التـي تصادف يوم الثامـن من شهر ينايـر (كانون الثاني) من عام ١٩٥٦م فهي الذكرى السنوية التاسعة لتنصيب ابن سعود ملكًا على الحجاز، لكنها مـرت دون أن يلاحظها العديد من الناس باستثنائي أنا شـخصياً. أسفـرت تلك الذكرى عن تجـربة غير سـارة تجلت في أن نشرت إحـدى الصحف اللبنانية الأسـبوعية مـقالة تهجمت فـيها عليّ شخـصيًا. حمل ذلك المقـال توقيع الكاتب الذي سبق أن قـدم لزيارتي في منطقة عـجلون قبل نشر المقـال بيومين أو ثلاثة أيام، إذ قدم نفـسه لي على أنه ممثل لوكالة أنبـاء شرقيـة. وقال بأنه ابن أخ صديق قديم لـي كان يسكن في مناطق عبر الأردن وجـدة، ويدعى فؤاد الخطيب. كان فـؤاد هذا قد عمل لسنوات طوال سـفيراً للمملكـة في أفغانسـتـان. قال هذا الصحفي: إنه قدم لزيارتي ليحذرني بأن صحيفة أخرى لبنانية تصدر باللغة العربية

قد تهجمت علي بسبب انتقادي السعودية وأنه قدم ليأخذ مني معلومات يتمكن بها من الدفاع عني. كان في صحبته أحد المصورين الصحفيين الذين يعملون في الصحيفة نفسها. سألني إذا كنت فعلاً كتبت مقالات انتقدت فيها بذخ الملك سعود ونشرتها صحيفة التايمز الأمريكية. أجبته بأن ذلك غير صحيح ولم يسبق لي أن نشرت مقالات من ذلك النوع. وسألني عما إذا كنت قد ارتددت عن الدين الإسلامي بعد صدور قرار إبعادي عن المملكة. قلت بأن ذلك غير صحيح أيضاً كما أنني لا أنوي فعل شي من ذلك القبيل، وأن كل شخص يدعي بأنني فعلت ذلك فهو شخص كاذب. وقال بأن هناك أخباراً مفادها أنني تلقيت رواتب كبيرة بصفتي مستشاراً لابن سعود؟ وسأل: هل كانت تلك الرواتب تدفع لي من عائدات النفط؟ أجبته بأن ذلك غير صحيح، وقلت أولاً: لم أكن أبداً مستشاراً لابن سعود في أي صفة كانت علماً بأنني كنت صديقاً حميماً له. ومما لا شك فيه أنني كنت أعبر عن رأيي في أمور كان يجد نفسه حيالها بحاجة إلى النصيحة، وثانياً: لم أتلق خلال فترة علاقتي مع ابن سعود أي راتب لا منه ولا من حكومته. وأضفت قائلاً: إنه بخصوص عائدات النفط فقد كنت الشخص الذي استهل المفاوضات التي أدت إلى منح شركة ستاندرز أويل الأمريكية من ولاية كاليفورنيا امتيازاً للتنقيب عن النفط والتي بسببها تدفقت ثروة ابن سعود التي نشهدها في الأيام الحالية، لكنني لم أقبض ولا ريالاً واحداً لقاء الخدمات التي قدمتها في حينها. رغب ابن سعود بالفعل في إعطائي علاوة شهرية لكوني عضواً في قصر الحكم لكن كان ذلك قبل فترة طويلة من موضوع المحادثات الخاصة بالعائدات النفطية، ومع ذلك امتنعت عن قبول تلك الهبة السخية. بعدها سألني ماذا بخصوص أمورك التجارية والنشاطات المالية الأخرى؟ تقول الشائعات: إنك

obeikandi.com

رجل غني؟ أجبته قائلاً: إنني لست رجلاً غنياً وأنا على استعداد لأعطي ثروتي لأي شخص يمكنه أن يثبت عكس صحة كلامي. عندها قفز الصحفي وقال بأنه يمكن أن يفعل كل جهده للاستفادة من هذا العرض.

كانت تلك النقاط الرئيسة التي طلب الصحفي إيضاحاً عنها. وفي سياق الحديث العام معه أخبرته بأنني قررت أن أستقر في لبنان وذلك: أولاً: لأنني أرغب في العيش في البيئة العربية التي سبق أن عشت فيها معظم حياتي، وثانياً: لأن لبنان كان بلداً حراً غير ملتزم بإيديولجية معينة، كما أن حرية التعبير عن الرأي متاحة، وفيه صحافة حرة وبرلمان نشط. ولهذا أجد أن لبنان هو البلد المثالي للتوسط من أجل إحلال السلام بين الفرق المتناحرة في العالم العربي وله القدرة على ممارسة التأثير الفاعل الملزم على تلك الدول.

غادرني ضيفي مؤكداً لي بأنه صديق لي وعلى استعداد للدفاع عني ضد ضغائن ومكائد أعدائي.

لكنني فوجئت حقاً بالمقالة التي نشرت وهي تحمل توقيعه. وهنا أتمنى لو أنه تمت مقارنة الثروة التي زعم بأنها دخلت إلى جيبي مع الحصص المقررة من ثروة النفط الهائلة التي تجنيها المملكة العربية السعودية.

ربما يتوق القراء للتعرف على أحد النصوص النموذجية التي تصدر عن الصحافة الرديئة في دول الشرق الوسط، والتي يمولها أشخاص قادرون على كتابة مواضيع تشجب هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إليكم نموذجاً من تلك المقالات:

اطردوا هذا الرجل..

شخصية بريطانية مشعوذة تقوم بنشاطات إمبريالية في لبنان ضد العرب!!

السيد فيلبي أو الحاج عبد اللـه فيلبي - البريطاني العربي، المسلم المسيحي. إن هذا الدجال الإمـبريالي الذي عـاش في المملكة العربيـة السعودية مـدة طويلة نعم خلالها بالضيـافة العربية تحول ليصـبح جاسوساً مخادعاً؛ لذلـك وعليه قام جلالة الملك سعـود بطرده من المملكة. إن هذا الإمبـريالي يقيم حـالياً في لبنان ويتـمتع بحرية مطلقة، ويقـوم بتزويد الصحف المحلية والصحف الأجنبيـة بأكاذيبه المضللة ويكتب وينشر الكتـب لصالح الإمبرياليـة والصهيـونية العالميـة. فوضت صحيـفة (الأحد) ممثلهـا ومصورها بالقيـام لزيارة هذا الدجال في منزله، وفيمـا يلي المقالة والصور التي التقطت خلال الزيارة.

إن هذا الرجل يدعى فـيلبي أو الحاج عبـدالله فيلبي، ويقـول: بأنه يعرف عن لبنان أكثر ما تعرف الحكومة اللبنانية نفسـها عن لبنان. قد اتخذ من مقر إقامته في قرية عجلون مكتبـاً إعلامياً لا نعرف لصـالح من يدير أعماله منه. هذا هو الرجل المعروف باسم فـيلبي بلحيـته الكثيـفة وعينيـه الجاحظتين، وها هو يرتدي العـباءة العربية وأحياناً يرتدي الملابس الأوروبية الرمـادية اللون التي تشبه ملابس السجانين البريطانيين في المستوطنات البريطانية في إفـريقية. ها هو يقابل ويستقبل من يرغب من الناس ويلصق التهم بمن يريد منهم. إنه يوزع اتهاماته بشكل طائش ويدعي بأن الصحف اللبنانية تتلقى الدعم المالي من جهات معينة. ويقول أيضاً: بأنه سيتحدث عن نشاطات تلك الصحف بموجب ذكرياته وتجـاربه في الدول العربية، وهو يقوم حالياً بإعداد تلك المقالات.

هذا هو الرجل الذي يدعى فيـلبي الذي سبق له أن قال: إن من مـصلحة لبنان أن يبقى على الحـياد لالتزامه بتـحالف الرياض القاهرة دمشق. وأن هذا التـحالف سيضع لبنان ضمن فكي الأسد -ولا أعرف إذا كان يقصد بذلك الأسد البريطاني-

كما أنه سيعرض لبنان للمخاطر من جهة البحر لأنه بلد صغير جميل وعليه يجب عدم تعريضه لصدمات عنيفة من ذلك القبيل...

اطردوا ذلك الرجل الذي جاء ليبارك وليدعم مشاريع الإمبريالية، فقد قال: إنه لولا موافقة الحكومة اللبنانية على مشروع نهر الليطاني لمات لبنان من العطش. وقال: إن لبنان سيعيش في المستقبل القريب خالي البال، ويعود الفضل في ذلك إلى مشروع الليطاني الذي وفر له الماء والكهرباء. إضافة إلى هذا الادعاء يقول بصلافة منقطعة النظير لا يجرؤ عليها إلا أشخاص من أمثاله: إنه من مصلحة لبنان أن يقبل أي شيء يعرض عليه؛ لأنه بلد فقير وبحاجة إلى مساعدة من الدول الغربية. ويقول أيضاً: إن لبنان لن يحصل على أي مكسب من السعي وراء الأحلاف العربية التي لا تلقى الدعم من القوى العظمى.

غريب أن يقول هذا الرجل المدعو فيلبي مثل هذه الأمور! إنه يقول بدون خجل بأنه يعد حالياً مذكراته عن تجاربه في الدول العربية لينشرها بعد عام في إنجلترا، وأنه سيشرح فيها كل ما شاهده من عيوب وتقصير في المجالات الاجتماعية والاقتصادية لهذه الدول. بعد ذلك يتلطف ويتنازل ليقول: بأنه يدرس ويفكر حالياً في موضوع بقائه في لبنان؛ وذلك لأن سكان هذا البلد ينعمون بالحرية التي تسمح لهم بالعمل دون قيود، لكنه وفي الوقت نفسه ينتقد كفاءة وجدارة مؤسساتنا الحكومية وعلى وجه الخصوص الجهاز الأمني اللبناني.

فلتبعدوا هذا المتبجح الذي نفته الحكومة السعودية عن أراضيها وآوته لبنان وسمحت له بحرية الحديث وتوجيه الاتهامات ضد الملوك. لقد استغل فيلبي هذا الترحيب ليقول عن ملك نبيل عظيم -سبق له وأن نعم في ظل حمايته بالأمان

وحسن الضيافة على مدى أربعين سنة- أشياء لا يمكن أن يقولها إلا الأنذال الأشرار. ولا أسمح لنفسي بإعادة ذكرها في هذا المقال لأنها أسوأ من الكفر وأسوأ من الإثم.

فلتبعدوا فيلبي المرتد عن الدين مرتين: فقد ارتد عن عقيدته المسيحية من أجل دوافع سياسية وإمبريالية ليصبح الحاج عبدالله فيلبي، بعدها تحول إلى مرتد مجددا إذ وقف ضد سيده وضد العقيدة الإسلامية التي التزم بها: فأهان بذلك سيده وتخلى عن معتقده الإسلامي. إنه الرجل الذي يقول بدون أي خجل بأن العرب أغبياء لا يستمعون إلى النصيحة، وأنهم لو قبلوا مشورته لما خسروا حقهم في واحة البريمي الجنوبية ولما خسروا قضية فلسطين في الشمال.

إنني أعرف مكانه ويمكنني أن أرشدكم إليه. فهو اليوم يعيش في عجلون وهي إحدى قرى كسروان حيث يتابع من هناك كل حدث وكل جديد، كما أنه يعد خططاً للتطور الاقتصادي يزمع أن يقدمها هدية لمختلف الدول العربية. الحقيقة أنه بإمكان الدول العربية الاستغناء عن مشاريعه والاستغناء عن وجوده في أراضيها وذلك درءاً للفساد الذي يمكن أن ينجم بسبب تواجده بيننا. في الحقيقة -كما سبق لفيلبي أن صرح- فإنه يسعى ليصبح لورنس الجديد في العالم العربي. والآن وبعد أن أفصحت لرئيس التحرير بكل التصريحات المشينة التي ذكرها فيلبي على مسمعي أقول بأن رئيس التحرير لم يسمح بنشرها؛ لأنها تمس شرف ملك عظيم يحترمه العالم العربي، كما تحترمه دول العالم بأسرها. وإن ذلك الاحترام حاصل رغماً عن فيلبي ورغماً عن الجهات التي يخدم مصالحها.

التوقيع: عبد الغني الخطيب

قالت صحيفة الأحد: نوجه هذه المقالة للسلطات المسؤولة كما أننا على استعداد لنقدم لهم كامل تصريحات فيلبي. إن هذا الرجل في الواقع متورط في نشاطات غريبة في لبنان، وبما أنه سبق للسلطات اللبنانية أن نفت بعض الشخصيات العربية بسبب نشاطات سياسية يقومون بها ضد بعض الحكومات العربية فليس لها عذر في السماح لهذا الرجل بالبقاء في لبنان.

من الحسن أن يعرف المرء ما يدور في خلد أصدقائه عنه، لكنني في هذا السياق أفضل ذكر المثل الفارسي الذي يقول: «عدو يقول الصدق أفضل من صديق يثير المشاكل».

ولكن ما كان من دواعي سروري أن زائري في الأمس لن يفكر في زيارتي مرة ثانية: لكن لا يسعني هنا إلا أن أهنئه على أسلوبه في العمل الذي يتميز -وعلى وجه التحديد- بكل القذارة الصحفية التي تحملتها الحكومة اللبنانية الليبرالية الحرة لقناعتها بأن نهيق الحمير لن يكون له الدور الكبير في استنهاض الرأي العام العالمي. وكما تقول الآية القرآنية الكريمة: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾. [سورة لقمان، الآية: ١٩].

أترك الأمر للقراء ليحكموا بين المقالة التي قمت بترجمتها سابقاً وبين ما ذكرته في المقابلة الصحفية من معلومات أفضيت بها لصفحي دجال.

ولأن الحكومة اللبنانية تعرف الكثير عن أهواء وتقلبات الصحافة في البلاد لا تنزعج من قيام الصحافة بهز ذيلها متأثرة بالضغوط الخارجية الدخيلة وغير الجوهرية. وعلى أية حال لا بد لي من أن أنوه أنه لم يحدث أبداً خلال تلك المقابلة الصحفية أن تحدثنا عن مشروع نهر الليطاني أو تحدثنا عن موضوع القروض الأجنبية للبنان.

ولكن كما كانت عليه الحال، بدا واضحاً أن الحكومة اللبنانية لم تتأثر بالمناشدات العاطفية التي صدرت عن مقالة عبد الغني التي استهدفت إخراجي من لبنان. واستمر المرجل في الغليان تحت نار هادئة تاركاً الأقدار تسير دون أن أتدخل في مجرياتها تماماً مثل عدم تدخلي في طريقة إعداد زوجتي لوجبات طعامي. لكن كانت هناك أيدٍ تمتد إلى فطرتي التي ربما تنبهت لوجودي بسبب المقالة التي أشرت إليها. حدث بعد بضعة أيام أن جاء موظف بسيط من جهاز الأمن في بيروت لزيارتي. سبق له أن قرأ تلك المقالة. قال لي بأن المقال سخيف ولا يستحق التحدث عنه؛ لأنه لم يكن سوى نتيجة حملة إعلامية تم دعمها بالمال؛ لكنني لم أعرف ما كان يريد من زيارته لي. وخلال وجوده معي بدأ الأصدقاء من القرية يتهافتون على بيتي، عندها استأذن الموظف وقال لي بأن عليّ في أحد الأيام أن أتناول معه طعام الغداء في بيروت، وبالتحديد بعد أن يعود صديق لي كان قد ذهب في زيارة إلى مصر. لكنني لم أجتمع به بعد ذلك اليوم أبداً وأتصور بأن زيارته لم تكن على أي محمل من الجد أو الأهمية.

بعد بضعة أيام عندما كنت في زيارة أحد أصدقائي في بيروت قدم شخص غريب إلى منزلي، لكنه لم يترك لي من معلومات عن نفسه سوى أن اسمه كان (حسين). سبق له على ما يبدو أن اتصل بي هاتفياً لكنني لم أكن موجوداً في المنزل ذلك اليوم. وفي اليوم التالي قدم مجدداً إلى المنزل وكان زائراً من نوع غير متوقع. كان اسمه الكامل حسين الطبري، وهو من اللاجئين الفلسطينيين المشهورين، سبق له أن كان السكرتير الخاص للأمير فهد أخي الملك سعود الذي كان يشغل منصب وزير المعارف في ذلك الوقت. نقل لي حسين الطبري تحيات سيده الذي كان في وقتها مقيماً في فندق سان جورج في بيروت، كما أعرب عن

بالغ أسفه لسوء التفاهم الذي نجم عن الأمور الغريبة التي حصلت بيني وبين العائلة المالكة. وقال لي بأن الأمير يرغب في مقابلتي ويسعده أن أتناول طعام الغداء معه في أي يوم يناسبني. أكدت للسيد الطبري بأنه يسعدني لقاء الأمير فهد واتفقنا على أن يأتي حسين الطبري إلى منزلي في عجلون في اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير (كانون الثاني) من عام ١٩٥٦م ليأخذني بسيارته لمقابلة الأمير. أرسل لي الأمير فهد رسالة أرجأ فيها موعد الغداء إلى يوم الثلاثاء لأنه كان يقضي عطلة نهاية الأسبوع في دمشق. وفي يوم الثلاثاء جاء السيد حسين من دمشق ليقول لي بأن الأمير فهد مريض ولا يستطيع القدوم إلى بيروت لاستقبالي وأنه سيتم ترتيب موعد آخر بعد عودته. بعدها ذهب ولم أره أو أسمع منه أي خبر، وبالطبع لم أقابل الأمير فهد الذي من الممكن أن تكون الحكومة كانت قد أرسلت في طلبه.

كانت تلك نسمة عابرة تركت الباب أمام التفاهم مفتوحاً بعض الشيء إلا أن تيار هواء جارف أوصده تماماً، وبقيت القصة الغامضة دون حل. وجاءت أمطار الشتاء وكان البرق يلمع حول بيتي وأنا أعمل على تأليف كتبي غير عالم أو آبه بمعجزات الأقدار.

انتهى شهر فبراير (شباط) بأعاصيره ودخل شهر مارس (آذار) حيث صُدِم رجال السياسة في العالم لإقالة الجنرال غلوب باشا من قيادة الفيلق العربي، الأمر الذي تجلى بمظاهرات جماهيرية مبتهجة تقدمتها عناصر فلسطينية هدامة كانت تعيش في الأردن تدعمها الحكومة المصرية وتمولها مصادر سعودية. إن ما كان عرضة للشجب هو الأسلوب الذي تم به إقالة غلوب باشا، الذي يتنافى مع الكياسة العربية خاصة وأنه أمضى عمراً طويلاً في تقديم خدمات جليلة لتقوية

الكيان السياسي العربي غير القابل للنمو أو التطبيق. ولا يسعني هنا إلا أن أقارن مصيره بالمصير الذي لحق بي. كنت قبل عام وخلال مروري في مناطق عبر الأردن في طريقي إلى المنفى على اتصال مع غلوب باشا الذي كان قد أدرك بأن دوره في النفي عن البلاد كان قادماً. تتلخص مشكلته في أن ترتيباته لنقل السلطة من يده إلى يد شخصية أردنية قد طرأ عليها بعض الخلل خاصة قبل بضعة أشهر على المهمة غير الموفقة التي أسندت إلى الجنرال تمبلر الذي فُسرت زيارته إلى الأردن على أنها محاولة من جانب الحكومة البريطانية لإجبار الأردن على الدخول في حلف بغداد. لم يقترف غلوب باشا أي خطأ شخصي بذلك الخصوص، لكن الحكومة البريطانية أخفقت تماماً في الحكم على الأمور. ربما كان غلوب باشا قد تفاءل كثيراً في الاعتقاد بأن بإمكانه إنجاز ترتيباته المذكورة آنفاً بالسرعة والوقت المناسبين له. كما سبق له أن صرح بأن الأمر يحتاج إلى أربع سنوات أخريات ليتمكن من إعداد العاملين تحت إمرته ليتولوا زمام المهام من بعده. لكن ظهور النزعة الوطنية العربية التي عززتها العوامل آنفة الذكر أطاحت به وزلت أقدامه بشكل مبكر. وأصبحت أمواج النزعة الوطنية العربية تعلو كافة شطآن العالم العربي، كما أن البحرين وهي المحمية البريطانية شهدت مظاهرة عنيفة تزامنت تقريباً مع التطورات في الأردن. نددت تلك التظاهرات بتشارلز بالجريف وسلوين لويد بسبب زيارة لويد إلى الجزر البحرينية عندما كان في طريقه إلى مؤتمر حلف بغداد الذي كان منعقداً في كراتشي.

وفي منتصف شهر مايو (أيار) أصبحت عدن مسرحاً لأحداث ومشاكل مماثلة إذ نددت باللورد لويد وبالمفوض البريطاني المسؤول عن شؤون المستعمرات، كما نددت بحكومة عدن وذلك احتجاجاً على الاقتراح الرامي إلى اندماج كافة

المحميات الرئيسة، كما فعلت ذلك تشجيعاً للرغبة الجماهيرية المتنامية في تحقيق الاستقلال أو إقرار حكومة ذات سيادة وطنية. كان العامل المشترك في كافة هذه التظاهرات هو الاستياء الجماهيري من استمرار السياسة البريطانية واستمرار الحكم البريطاني على المستعمرات البريطانية، علاوة على رغبة تلك الجماهير في المساهمة في استقلال البلدان العربية الأخرى. ولا أملك حيال هذه المشاعر إلا أن أعرب عن التعاطف معها. كما أن حقيقة التحركات التي كانت تلقى الدعم من قبل مختلف الدول العربية -وعلى سبيل المثال أذكر السعودية واليمن اللتين كانتا على خلاف قوي مع الحكومة البريطانية بخصوص بعض المناطق- لم تكن إلا لتشجع على الاعتراف برغبة كافة العرب في التحرر من الهيمنة الأجنبية وخاصة في المناطق التي تمت فيها مؤخراً ممارسة تلك الهيمنة بسبب دوافع لا يمكن إلا أن يشك في أفضليتها، إذ كانت موجهة ضد معايير معمول بها وتتعلق بحقوق الإنسان وبحقه في الاستقلال وتقرير المصير.

إن ما هو مؤكد أنه كان هناك العديد من القضايا والمشاكل في العالم العربي التي لم تعنَ بها الحكومة البريطانية بشكل مباشر، نستثني منها موضوعاً واحداً هو موضوع النفط. فرض الوجود الكامن للنفط تحت رمال المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية واقعاً قائماً سواء أكان ذلك على نحو شرعي أم غير شرعي سيطرت من خلاله بريطانيا على مناطق شاسعة لم يجرؤ الأوروبيون وعلى مدى سنوات طوال من الدخول إليها، باستثناء حفنة من المكتشفين البريطانيين. وبهذا الخصوص لا أشعر بالتعاطف مع الجهود التي بذلت سواء للبحث عن النفط أو لاكتشاف أراضي حقبة زمنية غابرة. لكنه من الصعب عدم التعاطف مع الحكومة البريطانية المثقلة بالمشاكل والتي تمت مطاردتها من نقطة إلى أخرى وهي تحاول بذل جهود مبررة

للحفاظ على مختلف قواعدها الإستراتيجية المنتشرة في كافة أرجاء المعمورة والتي عدتها حيوية للغاية للحفاظ على مصالحها في العالم على نطاق واسع. وأذكر من تلك المناطق جبل طارق ومالطا وقبرص وعدن ومالي والكولون وهنج كونج وسنغافورة والعقبة والكويت والبحرين ومسقط، إضافة إلى موقع أقدام لها في بلدان أجنبية أخرى. لم تكن هذه المناطق إلا أعشاب ضارة في حديقة التاريخ، إذ كان من المقدر لها على المدى الطويل أن تقتلع من جذورها خدمة لمصلحة أصحابها. أقول هنا: إنه إذا لم يعد بإمكان إمبراطورية أن تحظى باحترام وإعجاب العالم، فإن دول الكومنولث ما هي إلا انعكاس باهت لماضي الإمبراطورية المجيد، وسيبقى بريق ذلك الانعكاس حتى يتم على الأقل انحلال دول الكومنولث وتحولها في يوم ما إلى عناصر مركبة.

ربما يبدو هذا الاستطراد في الشؤون السياسية الراهنة لبعض القراء على أنه موضوع بعيد عن مضمون هذا الفصل من الكتاب، لكنه في الواقع ليس على ذلك النحو. إن الفرق بين إبعادي عن المملكة العربية السعودية وبين تجارب مماثلة قام بها أبناء بجدتي من البريطانيين الذين خدموا بتميز بالغ مصالح الإمبريالية البريطانية في مناطق مختلفة من العالم العربي لهو اختلاف يدل بوضوح على قصة معنوية خلقية رائعة، فعندما ألقي بي إلى المنفى -في وقت تعالت فيه صرخات التنديد الصادرة عن الحكومة السعودية ونكران الجميل بسبب انتقاداتي اللاذعة للمملكة- لم تخرج إلى شوارع المملكة العربية السعودية تظاهرات شعبية تعرب عن فرحها وسعادتها في سقوطي. لم تكن في حينها الصحافة البريطانية وكذلك الجماهير البريطانية عالمة بذلك الحدث الذي كان في الواقع حدثاً متميزاً. وإذا حدث أي شيء من هذا القبيل فقد كان شعوراً بالارتياح حدث في الأوساط

الرسمية البريطانية لإقصاء شخصية ينظر إليها على أنها المناصرة للحق العربي ضد الهيمنة الإمبريالية التي كانت تمارسها الدول المهتمة في الشؤون العربية منذ بداية الحرب العالمية الأولى. وصل إلى بريطانيا خبر سقوط غلوب باشا وسط مؤثرات جماهيرية ورسمية تتسم بالخوف والرعب، ناهيك عن التعاطف معه بسبب الخسارة التي لحقت به شخصياً. أما البلد الذي استمرت خدماته فيه لسنوات طوال والذي تحد أراضيه حدود المملكة العربية السعودية فشهد شعارات المديح والتأييد لمليكه ولحكومته التي وضعت نهاية للسيادة التي كان غلوب باشا يمارسها عليه(١).

كانت قضية بالجريف وقضية توم هنكنبوتام متشابهتين من حيث الجوهر: فقد شعرا بطمأنينة زائدة عن حدها جعلتهما يفكران بأنه من غير الوارد خلعهما عن منصبيهما. تعاطفت الصحافة البريطانية وكذلك الجماهير البريطانية معهما في محنتيهما، في حين أشادت صحافة العالم العربي بجهود المغيرين عليهما ووصفتهم بأنهم وطنيون معادون للإمبريالية. إنه ليس من الصعب تقصي سبب الفرق بين قضيتي وقضايا أبناء بلدي البريطانيين الآخرين الذين هم أكثر شهرة مني. فقد كان البريطانيون المذكورون آنفاً مسيطرين سيطرة مباشرة على الدول التي كلف كل واحد منهم بالعمل فيها، في حين كان هناك شخص على دراية بالأوضاع في المملكة العربية السعودية، يعرف أنه على الرغم من أنني فزت بثقة الملك الراحل إلا أنه لم يكن بيدي الدور أو القول الفاعل في إدارة شؤون البلاد.

حدث خلال الأسبوع الأول من شهر فبراير (شباط) من عام ١٩٥٦م أن عاودت مقابلة صديقنا الذي أشرت إليه في الفصل السابق وذلك لمناقشة الشروط

(١) تمجيد المؤلف لغلوب باشا، والإشادة بخدماته التي قدمها للأردن خلال إقامته هناك، ودفاعه عنه وتصوير تنحيته عن منصبه بأنها خسارة كبرى كما أن العمل فيه نكران للجميل. وهذا الكلام لا يمكن قبوله لأنه مناف للحقيقة ومجانب للصواب.

التي أتمكن بموجبها من العودة إلى السعودية. وبعد مضي شهر من الزمان وبمناسبة زيارة الملك سعود إلى مصر للتشاور مع الرئيسين المصري والسوري حول إمكانية تقديم الدعم المالي إلى الأردن -في حال حصوله على استقلاله من الحكومة البريطانية- تمكن صديقنا من مقابلة الملك سعود وكبار الرسميين في حكومته. ناقش معهم موضوعي أفراداً ومجتمعين، وخرج بانطباع بأنهم سيكونون مسرورين لعودتي. وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر مارس (آذار) توجه إلى جدة للاهتمام ببعض الأشغال الخاصة بمصالحه الشخصية. وكان متلهفاً لحسم موضوع مصالحتي مع الملك ومستشاريه، طلب مني أن أكتب رسالة إلى الملك أعرب فيها عن أسفي لسوء التفاهم الذي عكر جو العلاقات الودية فيما بيننا والتي ما زالت قائمة بيني وبين أسرته. كان في حقيقة الأمر قد أعد مسودة تلك الرسالة وطلب مني أن أكتبها بخط يدي مع شيء من التعديل ليأخذها معه في اليوم التالي إلى جدة. حدث في ذلك اليوم أن كنت مشغولاً ومرتبطاً بموعد؛ لذلك طلبت منه أن يطبع مسودة الرسالة التي جاء بها ويرسلها لي لأوقع عليها. وافقت على أن أذيلها وبسرية تامة بعبارة: «إنه صديق قديم سيسعى لتحقيق وإقرار الشروط التي هو على علم بها منذ وقت طويل». وعلى الرغم من أن الرسالة طبعت في مكتبه إلا أنها حملت تاريخ الحادي والعشرين من شهر مارس (آذار). لم يحتفظ صديقنا بنسخة منها وباءت محاولتي اللاحقة في الحصول على نسخة منها بالفشل. ولو أنها توفرت لدي لعرضت نصها على القارئ الذي يمكنه الآن أن يستخلص فحواها من خلال رد الملك الوارد أدناه عليها الذي حمله لي صديقي بمناسبة عيد ميلادي الحادي والسبعين، وبالتحديد في اليوم الثالث من أبريل (نيسان) عام ١٩٥٦م وذلك عندما كنا نتناول طعام الغداء في قصره الفسيح في بيروت:

obeikandi.com

«من سعود بن عبد العزيز إلى المكرم عبد الله فيلبي حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله، أما بعد،

وصلتنا رسالتكم المؤرخة في ٢١ مارس (آذار) ١٩٥٦م واطلعت على اعتذارك عن تصرفاتك، كما علمت برغبتك في أن نسامحك عما بدر منك. وباعتبار أنني -والحمد لله- مسلم عربي وليس من طبعي أن أضمر الحقد على أحد؛ لذا أرجو أن تفهم رسالتي هذه على أنها صفح عن كل ما قمت به من تصرفات، وأنه بإمكانك أنت وأسرتك العودة إلى المملكة في أي وقت تشاء، وقد أصدرنا تعليماتنا بذلك الخصوص إلى بعثتنا الدبلوماسية في بيروت، وندعو الله أن يمن علينا برحمته وبركاته».

تناقشت مع صديقي في ذلك الموضوع بالتفصيل وأكد لي عن قناعته بأنه ليس -فقط- الأشخاص المعنيون في الموضوع يريدون عودتي بل حتى الشروط التي قدمتها خطياً ستنفذ حرفياً، وأن كأسي سيقدم لي مترعاً تماماً. أخذت بكلامه وقلت له بأن ثقتي في صداقته الطويلة تحملني على قبول الدعوة في العودة إلى المملكة العربية السعودية رغم أنني كنت سعيداً بما فيه الكفاية في منفاي بلبنان، وأنه يسعدني أن تستمر إقامتي هنا في لبنان إلى الأبد، لكن هناك اعتبارات للواجب تفرض علي أن أرجحها على سحر ومفاتن العيش في المنفى. وبعد بضعة أيام زرت برفقته السفير السعودي لإنهاء الموضوع ومناقشة الترتيبات العملية المتعلقة بعودتي.

انتشرت أخبار عودتي المرتقبة إلى السعودية في الأوساط الصحفية لبلدان الشرق وفي الأوساط الإعلامية للبلدان المجاورة لها مثل انتشار النار في الهشيم، ونجم عنها فيض من التعليقات والتفسيرات تجاوزت في مداها الحس الذي أثارته أخبار

نفيي عن المملكة. كان هناك صحيفة واحدة تدعى (الحياة) تمكنت من خلال مراسلها من لمس جذور المسألة. ذكّر ذلك المراسل -الذي يطلق على نفسه الشريف فضل من بغداد- قراء الجريدة بالصيغة الحرفية التي نقلت أصلاً عن إذاعة مكة والتي تناولت أسباب ترحيلي عن المملكة. كنت في وقتها قد وصفت على أنني عميل للصهيونية. وعليه تساءل: كيف يمكن إعادة الشخص نفسه إلى حرمة وقدسية الإسلام المتمثلة في المملكة العربية السعودية!

كانت تلك ضربة ملموسة وصريحة لكنه معروف عن صحيفة الحياة بأنها أداة من أدوات الحملات الإعلامية البريطانية. استمرت تلك الصحيفة في تقليب أوجه الأمور المطروحة حتى بعد أن نشرت رسالة قصيرة لي بعثت بها إلى الصحيفة وبينت فيها حقيقة بسيطة هي أنني كنت بالفعل قد كتبت إلى الملك وتلقيت منه جوابه الكريم. لكن لم يكن من الضروري نشر فحوى تلك الرسالة إذ كان طبيعيا جدا بالنسبة للملوك أن يعفو عن هفوات الطعن بالذات الملكية.

ومع نهاية شهر أبريل (نيسان) كانت الأيام السبع التي شهدت الكثير من التساؤلات قد توقفت عن لفت اهتمام قراء تلك الصحيفة. لكن ذلك لم يكن نهاية القصة بالنسبة لمحبي إثارة المشاكل. في تلك الأثناء كنت قد انشغلت في ترتيبات أمور منزلي نظراً لاقتراب موعد تغيير المشهد. وبعد المزيد من تبادل الرسائل مع الملك تم الاتفاق أخيراً على أن أترك مؤقتاً أسرتي وممتلكاتي المنزلية الأخرى في لبنان بشكل مؤقت وأن أتوجه إلى الرياض جواً. تحدد أن يكون اليوم الثلاثين من مايو (أيار) موعد سفري. وهنا أشير إلى أنه عند ذلك التاريخ يكون قد مضى بالضبط ثلاثة عشر شهراً ونصف الشهر على طردي من العاصمة السعودية.

وفي الأيام الأولى من شهر مايو (أيار) حدثت ثمة مفاجأة مربكة بعض الشيء: تلقى موظف لبناني رسمي يعمل في السفارة البريطانية في بيروت رسالة من مجهول، وكانت في ظاهرها مرعبة تستدعي الاهتمام العاجل من قبل السلطات البريطانية التي اعترفت لي بأنها لم تكن ملتزمة في معرفة رغباتي ومصالحي في ذلك الخصوص. جاء في ساعة مبكرة جداً من النهار أحد موظفي السفارة، وهو صديق لي، ومعه صديق آخر إلى منزلي في عجلون ليسلموني تلك الرسالة. كنت في ذلك الوقت أستحم ولا أتوقع أي زيارة من أحد.

كانت الرسالة تحمل تاريخ الخامس والعشرين من أبريل (نيسان) عام ١٩٥٦م وجاءت على النحو التالي:

«أكتب لك هذه الرسالة دون سابق معرفة أو مراسلة من أي نوع كان. ستتفاجأ عند استلامك هذه الرسالة وربما لا تعيرها بالاً، لكن لا بد أن أؤكد لك أنه يجب التعامل مع فحواها على أنها معلومات مهمة وجدية. علاوة على ذلك أرجو أن لا تحاول معرفة من أنا لكنني أود منك أن تتذكر. . -وهنا كانت كلمة محذوفة غير واضحة في صورة الرسالة التي استلمتها- عندما تبرهن الظروف صحة معلوماتي التالية:

حدث وأن علمت من مصدر موثوق بأن هناك جهوداً قوية ومحاولات جادة تبذل لإقناع فيلبي أو الحاج عبد الله فيلبي بالعودة إلى السعودية. وكوني من العرب الوطنيين المؤمنين بأن حالة ومستوى العرب لن تتطور أو تتحسن طالما أن نظام الحكم وسياسة الحكومة السعودية باقية في السلطة، فإنني أنتظر الوقت الذي سينشر فيه فيلبي كتابه عن السعودية لأمكن الرأي العام من تلمس ومعرفة العديد من الحقائق الخاصة ببلد كافة المسلمين في العالم. وهنا عليَّ أن أفصح بضرورة

تحذير الرسميين والطلب منهم منع السيد فيلبي بكافة الوسائل من العودة إلى المملكة العربية السعودية. لقد تم اتخاذ بعض الترتيبات هناك. لا يسعني الآن أن أقدم دليلاً على هذا الترتيب لكن وقبل أن يحدث ذلك الأمر يمكنك التأكد من صحة هذه المعلومات وإدراك غايتها وذلك بتوجيه النصح إلى السيد فيلبي بأن يطلب الشروط ويحدد الضمانات المتعلقة بعودته، وأؤكد لكم بأنه سيتم تلبيتها جميعاً وذلك فقط للإيقاع بالسيد فيلبي وحمله على الذهاب إلى المملكة. وعليه فمن المفروض بكم أن تتخذوا كافة الاحتياطات الضرورية لحماية حياته خلال إقامته في لبنان. أقدم لكم نصيحتي هذه وآمل اللقاء بكم في المستقبل القريب».

يكفي ذلك القدر من الرسالة الذي يثير العديد من النقاط المثيرة المشوقة. إذا كان مقرراً لذلك اللقاء المأمول أن يحدث بعد الوفاة فآمل أن لا يحدث ذلك اللقاء أبداً. لكن -بعيداً عن المزاح هنا- أقول بأنني كنت دائماً قادراً -حتى في القضايا التي تعنيني مباشرة- على القيام بدراسة موضوعية لأي مشكلة. إنني أبدو أحياناً وكأنني أجمع بين دور الممثل والمتفرج، علماً بأن شكسبير -أو باكون أو مارلو- كان أول من قال: «إن العالم بأسره مسرح، وإن كل الرجال والنساء ما هم إلا ممثلون» أو قالوا كلمات أخرى تتعلق بذلك المسرح. أعتقد أن من حقي الاستفادة من الرغبة الحقيقية الصادقة عند الشخص المفروض به أنه المدافع عني من شر وضغينة الجزيرة العربية والراغب في مشاهدة كتابي هذا منشوراً. آمل في يوم من الأيام أن ألبي فضوله، لكن ليس في الظروف التي رسمها لي في مخيلته. إن هذا الكتاب في شكله الحالي غير معدل، وسيكون في متناول يد روبرت هيل لينشره على ما هو عليه وبالتكتم والتحفظ الذي أقره في نهاية المطاف، ذلك شريطة أن أجد دليلاً

obeikandl.com

أو برهاناً عند عـودتي إلى المملكة يثبت أن الانتـقادات التي أفضت إلـى نفيي عن المملكة قد أدت أو أنها ستؤدي إلى الكثير من الإصلاحات الإدارية والسياسية التي تحتـاجها الـبلاد بشكل ملحوظ. الـواضح أنه لم يعد من الممكن إدخـال مثل هذه التعديلات على كتـابي خاصة على ضوء الظروف المقترحة في الرسـالة المشار إليها أعلاه إذ إنه لا يسعني إلا أن أصبو لشهرة بصفتي مـؤلفاً لعمل غير مبالغ فيه. ربما تأتي تلك الشـهرة بعد حـادثة الموت المخطط لها كـما هو مشـار إليه أعـلاه، أما بالنسبة للحظة التي أعيشها الآن فالموضوع المطروح هو إما أن أذهب، أو لا أذهب ولم يسبق أن تولد لدي منذ أن قرأت تلك الرسالة شك حـول ماهية القرار السليم أو الخيار فـيما بينهمـا. كما أنني لم أتفـاجأ بالمعلومات التي حملهـا لي صديقي السكرتير في السفارة من أن كاتب الرسالة استخدم كلمة سرية. كما لم أتفاجأ من أن الرسالة زودت السفارة بمعلومات عن موضـوع لا صلة له البتة بشؤوني. وعليه أثبتت الأحداث منذ تلك الأيام حقيقة ادعائي.

لكن لم يكن بوسعي أن أترك نفسي بين نقيضين من مـراحل حياتي: ففي شهر يولية (تموز) عام ١٩٤٠م عندمـا كنت قد قررت مغادرة المملكة للالتـحاق بأسرتي في أمريكا كان الأميـر سعود نفسه -الذي أصبح حـالياً الملك والذي كان في ذلك الوقت ولياً للعهد- قد طلب إلي بأن لا أرحل خـشية أن تكون الحكومة البريطانية تعد المكائد للنيل مني، إذ كانت بالفـعل ترتب تلك المكائد. والحدث الثاني هو أن السفارة البريطانية هذه الأيام تحذرني بشدة من مغبة العودة.

لم يسـبق لي وأن ندمت أو أسفت على مـا ترتب عن رفضي لمـناشدة الأمـير سعـود لي في تلك الأيام السوداء مـن الانهيار العـالمي. لكنني أشعـر الآن بشيء

مماثل من التردد في العودة إليه ذلك على الرغم من التحذيرات المخلصة التي تلقيتها من قبل أحد الأشخاص الذين غدروا به أو خانوه.

لا يمكن للمرء أن يكون متأكداً من نجاعة قراره ما لم يوضع ذلك القرار على المحك. وذلك ما قررت أن أفعله في اليوم الثلاثين من شهر مايو (أيار) من عام ١٩٥٦م. إذا كان ذلك نهاية مطافي في الحياة فعليّ أن أواجهه باتزان ورباطة جأش علماً بأنني سآسف على أنه لم تتح لي الفرصة لأطلع العالم على المزيد من تجاربي في قفار الصحراء العربية عبر أربعين عاماً قضيتها في براريه.

ليس هناك رجل يأسف للعودة إلى موطنه بعد العيش في المنفى أكثر مما أسفت أنا نفسي لترك جبال لبنان الجميلة المسرة للناظرين والتي قضيت فيها أفضل سنة من عمري. كانت مخيلتي خلال ذلك العام تنشط في الكتابة عن السنوات التي سبق أن عشتها في وسط الجزيرة، والتي كانت بمنزلة المسرح الذي أدى عليه عمالقة الماضي أدوارهم في الحياة.. هناك أديت أنا دوري أيضاً في منزل منقسم بين اهتمامه ورغبته في أصالته وبين مخاوفه والرعب الناجم عن اندثار تلك الأصالة وذلك بفعل ما جلبته يداه من ابتكارات. وربما سيكون بوسعي في يوم من الأيام أن أكتب عن قصة (العودة الميمونة) تلك[١].

(*) عاد فيلبي إلى المملكة العربية السعودية، وانضم إلى عائلته وعاش بقية حياته فيها إلى أن توفي في بيروت وهو في طريقه إلى المملكة عائداً من روسيا في عام ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.